بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة صلاة الجمعة لفضيلة الشيخ أسامة الحمصي

ماذا تعلمنا من رمضان

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونؤمن به ونتوكل عليه، ونشكره ولا نكفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومِن سيئات أعمالنا، مَن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل له فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله، إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جحد به وكفر، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وقرة أعيننا وملاذنا ونجاتنا وأسوتنا وقدوتنا وقائدنا إلى الجنة مُحَمَّداً رسول الله، خير نبي أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره.

عباد الله، تدبروا القرآن المجيد، فقد دلَّكم على الأمر الرشيد، وأحضروا قلوبكم لفهم الوعد والوعيد، واحذروا غضبه، فكم انتقم من جبار عنيد، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٢-١٦].

وبعد فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل، وأحثكم وإياي على طاعته، وأصلي وأسلم على خير الخلق مُحَمَّد، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

أيها الإخوة المؤمنون: ها هي قلوب المؤمنين تتهيأ لوداع رمضان، وقد كانت تعيش في كنف أنواره ورحماته، ولم يبق منها إلا القليل، فالموفق السعيد مَن اغتنمها، وحقق فيها الصيام والقيام كما أمره الله تعالى، فقام شهر الصوم إيماناً واحتساباً، فغُفرت ذنوبه، مصداقاً لقول الحبيب المصطفى ﷺ: ((من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)) طُوبى لمن عَمَرَ نهاره بالصيام، ولياليه بالقيام، وتزود في رمضان من صالح الأعمال ما يقربه لمرضاه الخبير العلّام.

معشر الصائمين: تُرى ما الذي غرسه رمضان في نفوسنا، وما الذي زرعه في قلوبنا، وما الذي تعلمناه من مدرسة الصوم؟ لقد تعلمنا من مدرسة الصوم الصبر ومجاهدة النفس على شهواتها، فالفائز في هذا الشهر مَن حقق هذا الصبر، فكان له خلقاً في حياته كلها، ليس في رمضان فحسب، بل في كل الشهور والأعوام، وكيف لا يَكون المؤمن صابراً وقد اعتاد في هذا الشهر الصبر عن رغبات هي مباحة، مُباحةٌ له في الأصل من أكلٍ وشربٍ وغيرها، فارتقت نفسه بذلك وتربّت روحه على الصبر عن المباحات، فكيف يكون حاله في صبره عن المعاصي والآثام، إذا الحلال امتنع عنه صبراً في سبيل الله فكيف بامتناعه عن الحرام والمعاصي، لا شك أنه عن ذلك أبعد، وفي حفظ نفسه عن ذلك أشد، فالصوم نصف الصبر، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ، فالصائم الصابر.

ثم إن الصبر ثلاثة أنواع:

صبر على طاعة الله، تريد أن تطيع الله تحتاج إلى صبر.

وصبر عن محارم الله، اجتناب المعاصي يحتاج إلى صبر.

وصبر على ما قدره الله تعالى وقضاه.

وتجتمع هذه الثلاثة كلها في الصوم، فإن فيه صبراً على الطاعة، وصبراً عن ما حرم الله، وصبر على ما يحزن الصائم من ألم الجوع والعطش وضعف النفس والبدن، وقد وعد الله الصابرين بقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وهكذا يتبين لنا عظم الارتباط بين الصوم والصبر، وأن الصوم سبيل أكيد لاكتساب خلق الصبر، ذلك الخلق العظيم الذي أمر الله به، ورفع من شأنه في كتابه، وأثنى على أصحابه، ووعدهم بالأجر الكبير عنده، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

والإنسان في حياته محتاج إلى الصبر دائماً، ورمضان فُرصة لا تُعوّض لاكتساب هذا الخلق يعني الصبر، فربما ابتلي في نفسه بمرض أو حرمان أو في ولده أو ماله، وهو يحتاج في ذلك إلى أن يصبر على متطلبات الحياة في بيته وبين أهله وأولاه، هو يحتاج للصبر على معاناة الأولاد أن يكون في خدمتهم والعناية بهم، هو بحاجة إلى الصبر كذلك عندما يكون في عمله وفي وظيفته وفي غير ذلك من المجالات، ومن دعا بحب وإخلاص لنيل هذا الخلق حصل عليه، فقد قال الرسول ﷺ: ((مَن يتصبر يصبره الله، وما أُعطي أحد عطاء أعظم ولا أوسع من الصبر)).

وبالصبر يعيش الإنسان سعيداً مطمئناً، لأنه على ثقة بأن بعد الصبر فرجاً، وبعد العسر يسراً، جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: وَجدنا خير عيشنا بالصبر. والصائم المحتسب اعتادت نفسه وتربت طيلة هذه الأيام المباركة على أنه إذا أُوذي أو شتم لا يغضب ولا يقابل الإساءة بمثلها، لأن بصومه عاهد ربه على حفظ لسانه وجوارحه، إذا أحد سابه أو شاتمه يقول له: إني صائم، يعني صبّر نفسه عن الرد، هذا تعلمه على طيلة ثلاثين يوماً، الصائم المحتسب ليس في صيامه وليس حياته ملل أو شكوى، فهو يترك كل ذلك بكل قول سديد وعمل صالح مديد، فصيامه لله، وصبره بالله، وجزاؤه على الله سبحانه وتعالى، فإذا تحلى الإنسان به كان جديراً بأن يصلح في حياته وأن يقدم الخير العميم لأمته.

أيها المؤمنون: تعلمتنا من مدرسة الصيام كيف نبني إرادتنا الحرة ونضبطها بضابط الإيمان، ومراقبة الله عز وجل في كل وقت وآن، علمتنا مدرسة الصيام كيف نكون جميعاً على حالة نفسية شعورية واحدة، فترى الغني يَعطف على الفقير، لأنه استشعر وذاق الألم الذي يكون بامتناع عن الطعام والشراب، فيتذكر حال الفقراء والمساكين الذين تمر عليهم الساعات وهم يستشعرون هذا الجوع ويكابدون مرارة الحرمان، فكيف الرحمة في قلب هذا الغني، فتراه ينفق مما آتاه الله تعالى من فضله، لأن رمضان أراه بصورة عملية كيف يكون حال الإنسان عندما يفقد الطعام

والشراب، لكن حتى تشعر بهذا الشعور الله يعلمك إياه بالصيام، وقد وعد الله المنفقين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤] ومن قواعد النفس أن الرحمة تنشأ من الألم، وبذلك ترى وقوف المؤمنين باتحاد وترابط، وترى كل واحد منه يشعر بأخيه ويتحسس أحواله وأموره، وكيف لا يكونون كذلك والإسلام جعلهم إخوة عندما يقومون معاً بصلاة الجماعة، بغض النظر عن مستوياتهم وحالاتهم الاجتماعية، يَقومون ويسجدون في وقت واحد، أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء، أعلى المناصب وأقل المناصب، يَصومون في وقت محدد ويفطرون في وقت محدد، فأي رابطة أقوى من هذه الرابطة، أي صلة تجمع بين الناس أشد من هذه الصلة؟ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فكم تركت لنا يا رمضان من آثار إيمانية بقلوبنا، كم زادت صلتنا ومودتنا بك يا رمضان.

عباد الله: يُشرع لكم بعد العمل الصالح الاستغفار، فهو ختام الأعمال كلها، لعل الله يُكفر بسببه ما كان في العمل مِن نقص، وهو خَيرُ وسيلة للاستزادة من رحمة الله، واستمطار خيراته وبركاته، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢] ولعظم أمر الاستغفار جمع الله بينه وبين توحيده عز وجل، قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [مُحَمَّد: ١٩] في ختام الصلاة نستغفر الله ثلاثاً، في ختام المجلس نقول كما أوصانا رسولنا صلوات ربي وسلامه عليه: ((سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك)) وكذلك ينبغي أن نختم الصيام بالاستغفار والتوبة لله عز وجل.

أختم بهذا: كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الأنصار، كان عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشدي الخامس، سمي بذلك لأنه سار على سنن الخلفاء الراشدين، كتب عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى الأنصار يأمرهم بختم رمضان بالاستغفار وصدقة الفطر، وقال عمر في كتابه -أرسل إلى ولاة الأمور بتوجيه الناس للاستغفار في نهاية رمضان، ومن لم يُؤد صدقة الفطر فليؤديها، بالمناسبة أُذكر أن صدقة الفطر بأنه ينتهي وقتها بغروب آخر يوم من أيام رمضان، وينتهي وقتها قبل صلاة العيد، فمن أداها قبل صلاة العيد تُحسب صدقة فطر، ومن أداها بعد صلاة العيد فهي صدقة من الصدقات مع إثمه وتقصيره- كتب عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى الأنصار يأمرهم بختم رمضان بالاستغفار وصدقة الفطر، فقال عمر في كتابه: قولوا كما قال أبيكم آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقولوا كما قال أبيكم نوح عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] هؤلاء الأنبياء أعظم الخلق، وقولوا كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وقولوا كم قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

فاتقوا الله عباد الله، واختموا عبادتكم وصومكم بالاستغفار إلى العزيز الغفار، وواصلوا الطاعة في رمضان وفي غيره من الشهور والأعوام، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فيا فوز المستغفرين استغفروه يغفر لكم، والحمد لله رب العالمين.

بتصرف

مديرية أوقاف دمشق